رئيف خوري : كاتباً سياسياً واجتماعياً

بقلم الدكتور ميشال سليمان

صاحب الكلمة المدرسة ، رئيف خوري ، كلما انطرحت على بساط البحث مشكلة سياسية ، أو معضلة اجتماعية ، مما يتعلق بلبنان والعرب والعالم أجمع ، طلع اسمه كأنصع ما يكون الالق النافذ في مطاوي الدياجير ، متسربلا بالحكمة ، رافلا بأبراد الادراك النير والرأي البصير .

ولا بدع ، فرئيف خوري ، الاديب الموسوعي ، أفنى عمره القصير في معترك الحياة الصخاب ، خائضا غمار الملمات الاجتماعية . ولم يطف على السطح ، ولم يداج ، ولم يوارب ، ولم تفعل فيه سوءة الانتهازية ، شأن الكثرة الكاثرة ممن يتعاطون السياسة على أنها لعبة تلعب ، ومطية الى أغراض قد تتعدى الآنية الى موعد قابل مع الحياة مما يسمونه بالتكتيك .

فالاديب الحر ، والمفكر الانساني الثائر الرائد ، الذي هو رئيف خوري ، نزه نفسه منذ البدء عن الدرج في مهامه العفوية ، ومتاهات الغيبية ، ومفاوز الارتجال . ونفض عن كاهل فكره ما يؤدي به ، في مواقف وآحايين ، شأن الكثيرين ، الى وجوب التفكير بعقل غيره ، أو استيراد الحلول الجاهزة ، لكيلا يجشم نفسه مشقة الكدح المجد ، في سبيل الوصول الى فك الارصاد ، واستخلاص المنهج المبتغى والواجب الاتباع ، من خلال تناقضات الواقع ، عبر عملية التوفيق بينها وبين ما يرتجيه .

ومن هذه الزاوية بالذات ، كان رئيف خوري بحق حامل هم اجتماعي كبير ، في كل ما دبجته يراعته من بحوث وخطب وقصائد وكتب ، تنتظم جميعا هم الانسان في أن يسعد ويعيش ، ويملك زمام مصيره بكلتا يديه ... همه في أن يعبر عن خلجات قلبه بحرية تامة ، وان أغضب قوله السلطان ، أصيلا كان أم دخيلا ... همه أن يتمرد ويثور ، ساعة يجد ان التمرد والثورة شرطان من شروط بقائه ، واستمرار بقائه ، وان عقدت الهيئة الاجتماعية التي ينضوي اليها ، حبل حياته بسيف حرمانه ونطع جبروتها .

ومن جراء هذه المسؤولية التي ألزم بها نفسه ، كانت تلكم المواقف الارادية التي وقفها رئيف خوري من الانسان ، ومن قضاياه الوجودية ، مدافعا عن القيم ، عن خزانها الاعظم : الشعب ، تحدوه الارادة الايجابية للحياة المتحركة المتطورة ، المتقدمة ، برغم جميع الذين يعيشون على هوامشها ، ويخلقون القرف من وجوب التمتع بجمالاتها وخيراتها .

ولهذا ، عمد رئيف خوري في مواقفه السياسية والاجتماعية الى عدم تجريد الانسان من علاقاته ، زمانا ومكانا ، والى عدم تجريد التاريخ ، بالتالي ، من مقوماته ، ونكران قوانينه ، لكي لا يشوه أفكار الناس وأعمالهم . ثم أجهد فكره لكي يثبت ان للحياة قوانينها الاجتماعية العامة أيضا ، تلك التي تقلبت فارتفعت بها من طور الى أطوار ، حتى بدت كأنها تطور تدريجي لقيمة وحرية الانسان ، كارتقاء نحو نظام اجتماعي يجعل منه كائنا منسجما مع انسانيته . كما انه ، بالتالي ، عمل لكي يثبت أيضا ان هذه القوانين ، لا يمكن أن تفعل فعلها الواعي بغير انصبابها في المجرى الذي يحفره لها الناس . وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير في قصته القصيرة « القرية » ، تلك التي روى فيها قصة جماعة تتعاون لتدحرج الصخور ، وتشق الطرق ليعبر العابرون الى حيث تقودهم أساليب ارتزاقهم اليومية المعطاء .

ومن خلال هذا الادراك العميق للعلاقات الاجتماعية ، والنابع من تجربة ذاتية ، ومن الرغبة في وجوب جعلها تولد هيئة عامة مسؤولة ، يصبح فيها التطور الحر لكل فرد شرطا لحرية تطور المجموع ، كان علم السياسة ، أو « سياسة الاجتماع » على حد تعبير رئيف خوري ، وقد شاءها ادراكا ، وفكرا ، ونهجا ، مستندة جميعا الى واقع ، وغير منفصلة عن العمل والنشاط الاجتماعي العام . فهو يقول في دراسة له بعنوان « بين سياسة الواقع ، وسياسة المبدأ » : « ان كل سياسة لا تستند الى فهم الواقع واعارته الاهتمام الضروري ، هي سياسة قاصرة أو خائبة . لكننا قلنا : فهم الواقع ، ولم نقل الواقع فقط . وفهم الواقع معناه بالدرجة الاولى أن نفهم هذا الواقع ليس أزليا ولا أبديا ، ولكنه خاضع للتحول والتغير . فمن فهم الواقع مثلا أن نأخذ بعين الاعتبار ان الاستعمار موجود . لكن من فهم الواقع أيضا أن ندرك

المنبصر الذي أدرك بوعي كلي « ان الفن انما هو بالنتيجة صور وأفكار تؤدى في رونق وجمال » وان الطاقة المهمة في الفن ليست كامنة في المحتوى وحده ، ولا في الشكل وحده ، بل في كليهما معا . ولقد أوصى في « الدراسة الادبية » (ص ١٤) « بتوفية كل عنصر حقه من العناية مع الملاءمة بينهما » .

هذا ولرئيف في مجال الفكر الادبي اراء تفصيلية قيمة يضيق بنا المقام عن اثباتها ، تطرق فيها باسهاب الى البحث في عناصر المبنى ومادته وقوالبها وطرق الاداء ، وفي الانواع الادبية والمواضيع والاساليب ، وفي التاريخ الادبي والدراسة والنقد ، وفي الجمالية أحيانا . لم يفته فيها جميعا التماسك والانسجام مع فكرة عامة ، ومع نظرته الاساسية الى الفن والادب ، وهي غنية دائما بضروب من الاستشراف والاجتهاد في مسائل كثيرة يحوجنا فيها النظر وتعوزنا الاصول والمفاهيم . ومن هنا كان رئيف يطل علينا في جميع مراحل حياته مفكرا أدبيا من طراز حديث خاص ، ملأ جزءا كبيرا من فراغ لا يزال الفكر النظري في الادب والفن يعاني منه حتى اليوم لربط ما انقطع بين تراثنا الاكاديمي الجمالي وبين الحياة الفنية الابداعية المتطورة . ولقد لعب رئيف ههنا في هذا الميدان دورا بارزا جدا اذ جهد في استخلاص النظريات الجديدة وصوغها مفاهيم يستلحق بها الفكر الادبي عندنا ما فاته من مواكبة مد الحياة الادبية والفنية في لبنان وفي مختلف البلدان العربية والعالم .

ولئن فات رئيفا أن يبني في الجمالية العربية بناء شاهقا ، وهو أمر مستحيل في مرحلة نفتقر فيها الى أولى المعطيات المبدئية والمادية لهذا اللون من التفكير الفلسفي الشامل ، فلم يفته أن يكون طليعة من جاهدوا بدأب ، وجرأة ، ووعي ، في سبيل تنقية الفكر الادبي من المفاهيم الجامدة ، واغنائه بالاصول النظرية ليماشي ركب حياتنا الفنية ويفاعلها اخذا وعطاء فتعلو فوقها الشوامخ ، ولرئيف في كليهما ، في النظر الادبي وفي الابداع ، أعلى المشارف وأبهى السمات وأطيب الذكر .

ميشال عاصي

ان الاستعمار صائر حتما الى الزوال ، بفضل قوى ناشئة ناميـــة صاعدة في نموها ، في بلادنا وفي الدنيا بأسرها » .

فالتأكيد على قصور وخيبة كل سياسة لا تستند الى فهم للواقع، لادراك عميق لطبيعة كل سياسة تنتهجها دولة ، أو هيئة اجتماعيـــة كبرى . كما ان التشديد على « فهم الواقع » يفترض ، بالضرورة ، ايجاد منهج علمي عقلاني للتفكير والعمل ، يتألف من معرفة حسية ، ومعرفة منطقية مبنية على أساس النشاط العملي الذي يشكل القـوة المحركـة للمعرفة .

وعندما يؤكد رئيف خوري قائلا بأن « من فهم الواقع مثـلا ان الاستعمار موجود » ، ثم يعطف قوله : « ولكن فهم الواقع ايضا أن ندرك ان الاستعمار صائر حتما الى الزوال بفضل قوى ناشئة ناميـة صاعدة في نموها ... » فهو يختصر بأسطر وكلمات قصـــة التطور العام ، ويؤكد صحة القول بأن الضرورة ، وهي هنا زوال الاستعمار ، ليست ما قد يكون أو لا يكون ، بل هي ما لا بد أن يكون بكل تأكيد ، وذلك لانها ناتجة عن أسباب عميقة نابعة من صميم الظاهرات الاجتماعية، المتمثلة بقوى شاخت وبدأت تنحدر ، وبقوى ناشئة نامية صاعدة في نموها ، تحمل في كيانها عناصر الفوز والغلبة في اخر الامر ، ولانهـا تؤكد بالتالي على توافق الضرورة ، الحتم ، بالصدفة الطارئة ، وهي ، لعمري ، أساس في فهم عوامل التطور السياسي والاجتماعي العام .

غير ان رئيف خوري لا يطرح قوله هذا على انه شعار لمنـاسبة طارئة ، بل يضعه في نطاقه المنطقي من حيز التصميم والعمل ، فهـو يقول : « قد يقال ان مسألة زوال الاستعمار هي مسألة مبدئيـة . صحيح . ولكن ، صحيح أيضا انها مسألة واقعية . فالنتيجة التـي نخلص اليها اذن ، والتي يجب أن نخلص اليها ، هي ان هذا التفريق بين الواقع والمبدأ ، يقتضي حذرا كليا ، لان الاختبارات الصارخة قد بينت ان هذا التفريق باطل ، وضال ، ومضلل . فنحن اذن لا نحتاج الى سياسة واقعية وحسب ، بل اننا نحتاج الى سياسة واقعيـة ومبدئية في الان نفسه ، أو نحن نحتاج الى سياسة واقعية تفهم ان المبدأ ايضا هو واقع ، من صميم الواقع » .

أجل ، « سياسة واقعية ومبدئية في الان نفسه » تلك التـي اعتنقها ونادى بها رئيف خوري ، سياسة تفعل فعلها كقوة اجتماعيـة واعية ، قوامها المعرفة العميقة لسنن التطور الاجتماعي ، وابتعادها عن الوصولية ، والانتهازية ، والذرائعية ، والطوباوية ... سياسة تفهم ان المبدأ هو مفهوم كامل ديالكتيكي للاشياء والظاهرات ، ينجم عنـه خطة سير مجمل النتائج العملية الدائرة في مدار القانون ، لتحقيق أهداف التقدم ... وان واقعية هذا المبدأ تعني ستراتيجيته فـي تحركها النضالي الثوري ضد القوى الرجعية على اختلاف أنماطهـا وأدوارها .

ان هذا التحديد الناصع للسياسة ، وهذا الوعي العميـق لاغراضها ، على غير جمود ، ولخصائص تحركها ، هي التي أهلت رئيف خوري ان يتسنم ذروة من ذرى الفكـر السياسي والاجتماعي العربـي الحديث ، وجعلته ، في كل مشكلة سياسية ، واجتماعية ، وأدبيـة ، طرأت في الاربعينات الاخيرة من تاريخنا العام ، يقول الكلمة الفصل ، ويشير الاشارة الصائبة ، ويطلق القذيفة المدمرة على المعاقل التي لـم يبق لها بد من التدمير ، حتى ليصح القول بأن كل معترك يخلص الى نتيجة معطاء ، وهدف بناء ، اثرا من رئيف خوري .

أما الدليل على هذه الاصالة في المعرفة وفي كيفية استخدامها ، فسيل من الابحاث ، والمقالات المالئة الصفحات العديدة من أمـات الصحف والمجلات العربية ، ومجموعة من كتب ، ابتداء من « الفكـر العربي الحديث » الى « معالم الوعي القومي » ، الى « مع العـرب في التاريخ والاسطورة » ، الى « الثورة الروسية » ، الى « حقوق الانسان » ، الى « حبة الرمان » ، الى « الحب أقـوى » الخ ... وكلها ناصعة الديباجة ، بناءة التفكير ، جهيرة بالحق والعدل والحرية، قائمة على الرأي العقلاني العلمي ، الغائص الى اعماق القضايا الوطنية والانسانية ، والمستخلص منها خطة للعمل الآني ، واستشرافا لواقـع وحالة قابلة .

على ان نقطة البركار في مدار تفكيره السياسي والاجتمـاعي ، كانت لبنان ، الذي أحبه كما لم يحب وطني وطنا ، وأراده انسانا فـي عين ، وعينا في وجه ، ووجها في جسم صحيح معافى ، مبرأ مـن العاهات الجسدية والخلقية ، يسعى سعيه العارم في معارج التقدم والرقي ، ويسهم في عملية بناء عالم الغد الافضل .

على ان رئيف خوري لم يرد لبنان على هذه الصورة لان له ميزة تتمثل في ما خصته به الطبيعة من مناظر فريدة وانتظام فصول وحسب، بل لان ميزته تتمثل في ما يتمتع به من حرية وديمقراطية ، و « لان الفكر الجديد التقدمي سبق فيه الى النبات والازهار . ومن واجبنا نحن أن نزيد فيه هذه الحرية والديمقراطية سعة ورسوخا . ومـن واجبنا أن نقوي فيه هذا التفكير الجديد التقدمي ، نباتا وازهارا ، وأثمارا » . غير انه ، بالتالي ، لا يؤخذ بهذا القدر من الحريـة والديمقراطية المتوفرة في لبنان ، فيبادر الى القول : « اني لا أقول ان لبنان بلد الحرية والتسامح في الشرق العربي ، بل أذهب الى أبعد من ذلك ، فأؤكد ان لبنان هو البلد الذي لا تمكـن فيـه الا الحريـة والتسامح . هو البلد الذي يشعر بوخامة العاقبة أسرع شعور وأشد شعور حين تنفي عنه الحرية والتسامح » .

أما ميزة رئيف خوري في حبه للبنان ، فهي في كونه لم يكـن طوباويا ، ولا مستقبليا مستعجلا الامور ، وانما كان واقعيا ، يقـرن عاطفته بواقع مرتهن بسياسة مبدئية ، وبمسلك عملي واجب الاتباع ، الامر الذي حمله على القول فالترديد منذ عشرين عاما : « لقد أصبحت الظروف الداخلية والدولية في لبنان تقتضي أن يتحلل الشغـل بالسياسة من مستوى أدنى ، مستوى الحرص على البقاء في الحكم ، ونكاية بالخصوم ، والتصرف بالعزل والتعيين ، ومجرد التطبيق ، الى مستوى أعلى ، هو حفظ استقلال هذا الكيان الجمهوري العزيز ، وحفظ حقوق المواطنين ، وضمان خبزهم وحريتهم ، وتسيير السفينة الوطنية اللبنانية تسييرا حكيما لا يعدل بها بدافع داخلي ، او بضغط اجنبـي صريح ، أو من وراء الستار ، الى جهة تعرضها للاصطدام والكسر » .

اذن ، السياسة اللبنانية ، عند رئيف خوري ، عقيمة ، عاقر ، اذا لم تكن حفاظا على استقلال لبنان وكيانه العزيز . وهي أيضا لا مجدية، اذا لم تكن في حيز الاجتماع ، حفاظا على حقوق المواطنين ، وضمـانا لخبزهم ولحريتهم . ولكي تصبح هذه السياسة ضمانا للخبز وللحرية، ينبغي لها أن تنسجم مع الحاجات التي يراد من المجتمع تأمينهـا . ومن هنا كانت غضبة رئيف خوري ، الاديب الثائر ، والمفكر المتمـرد الناقم ، على الحكومات التي أهملت خبز الشعب، وكبلت خطاه ، وعجزت عن ان تلبي حاجاته . الا انه لم ييأس ، ولم يلق السلاح ، فخـاض جميع المعارك الوطنية والفكرية لكي يحصل الشعب اللبناني على حقوقه، على خبزه اليومي ، و « خبزه الاخر » على حد تعبيره ، غير آبه لمغنم يأتيه ، أو لحرمان يصيبه ، من جراء موقف أدبي ، أو سياسي ، أو اجتماعي يقفه ذودا عن قضية يمليها عليه ايمانه المطلق في وجـوب توفير العدالة والحرية للشعب ، وفي « استعداد لبنان استعـدادا كيانيا صحيحا لان تتوافر فيه ديموقراطية وعدالة وحرية ، وجهاز كفؤ لتطبيق العدالة والحرية » .

غير ان هذا الحب للبنان الذي يضارع التقديس ، على مثـله من الرغبة في رؤيته كبيرا في توثبه وارتقائه ، لم يكن ليلقي بصاحبـه في أحضان الاثرة القومية أو ما يلازمها من ضروب الانعزال ، بل علـى العكس تماما ، اذ رأيناه يوفق التوفيق الاتم بين لبنانيته وبين عروبته، فيقف في الطليعة العربية المناضلة من أجل السيادة والحرية وحـق تقرير المصير ، ويقف ايضا في خط المناضلين على كل الجبهات ، أنـى تنادى شعب أو بلد لاخذ حريته ، ورفع صوته حرا في جوقة الشعوب الهتافة للطمأنينة والسعادة والسلام . وحسبنا من صدق ايمانـــه

ـ التتمة على الصفحة ٦٨ ـ

رئيف خوري كاتبا سياسيا واجتماعيا

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٠ ـ

بقضايا الشعوب ، وبمواقفه الرافلة بجلال النضال ، ما كتبه في قضايا آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، منددا بالاستعمار ، مطالبا بالحرية ، داعيا الى التضامن الصمود في وجه القوى العدوانية الباغية ، التي لن تتخلى عن جشعها طواعة ، ولن تتوارى عن مسرح السيطرة والطغيان الا حين تبت بأجلها حركات التحرر المتفجرة في كل أرض عطشى الى شمس الحرية والانعتاق .

أما قضية القضايا العربية : فلسطين ، فقد كان لرئيف خوري في معالجتها الرأي الاسد منذ نشوئها . ومما كتبه بصددها سنة ١٩٤٥ قوله : « لا بد للعرب قبل كل شيء ، من جبهة موحدة تطالب بوقف الهجرة وتعارض التقسيم ، وتجعل أساس منهجها النضال لانهاء الانتداب ، واقامة حكومة وطنية فلسطينية على قاعدة دستور ديمقراطي مبني على التمثيل النسبي » .

واذا ما أمعنا النظر في هذا القول الموضوعي ، وجدنا الحال اليوم الى اكثر شروطه أحوج ما تكون . فأين العرب من الجبهة الموحدة ؟ بل اين حكومة فلسطين العربية التي هي شرط في حل هذه المعضلة المأساة ، وقاعدة أساسية تجعل للشعب الفلسطيني قضية يناضل من اجلها ، بدل التشبث بأهداب مشاريع سرابية ، وشعارات سياسية مفرغة من كل جوهر ؟

وهنا تجدر الاشارة الى ان هذا الرأي البالغ الجرأة ، وبخاصة يوم نشر ، قد جر على رئيف خوري الوبال . فناصبته العداء حكومات وجهات وهيئات زعمت وتزعم لنفسها صفة تنزيل القول الفعل في الامور . ولو انها سعت الى الهداية بقبس من واقعها ، وطهرت نفسها من أدران الجهل النشيط ، ولم تسترسل في ارتداء ما يفصل لها ، بصرف النظر عن مقاييس أعضائها ، ثم أخذت بمثل هذا الرأي ، وهو الصواب ، لما اضطرت اليوم الى ستر عريها بورقة التين ... وهيهات.

أما والقضية الفلسطينية قد وصلت الى ما نحن فيه الان من محاولات غسل العار بأقذر مياه ، فلا بد لنا أيضا من التذكير مرة أخرى ، بما قاله رئيف خوري عقب « النكسة » بصدد اسرائيل ، وفلسطين ، والعرب ، ودرب الخلاص . قال : « أن دولة اسرائيل انما هي دولة من حيث الواجهة والاسم فقط . اما من حيث الحقيقة فهي قاعدة عسكرية عدوانية للاستعمار ، ولا سيما الاميركي . وكلما نمت حركات التحرر في الشرق العربي خاصة ، اشتد وضوح هذه الحقيقة.. والاعتقاد بأن تسوية الحساب مع اسرائيل ممكن مع بقاء الاستعمار ، ولا سيما الاستعمار الاميركي على حياد ، هو اعتقاد أقل ما يقال فيه انه خيالي ... » .

أجل ، ان اسرائيل من حيث الكيان ، دولة وهمية ، ومن حيث الواقع ، قاعدة عسكرية عدوانية ، ولن يصار الى حل عقدة قيامها في هذا الشرق العربي ، كما انه لن يصار الى حل عقدة السيادة الوطنية والحرية في جميع الاقطار المناضلة ، الا بتبني سياسة واقعية ، مبدئية ، تقرن الضرورة بالمعرفة ، والاسباب والنتائج بالمسببات والغايات ، على انها جميعا ، كما يقول رئيف خوري ، مبدأ ونهج ، يتمثلان في الحرية والتحرر ، وفي ما يوفرانه من مناخ لازم لتحقيق انسانية الانسان ، وجعل حياته غير مرتبطة بانسان اخر ، وذلك لكي لا يضطر الى بيع جهوده وحريته ، فيصبح بذلك أداة للربح ووسيلة لاستثمار انسان اخر ، وبالتالي ، لكبح حريته .

ولكن ، كيف تصبح السياسة مبدأ ونهجا لتحقيق انسانية الانسان ، لتحرره ، في مجتمع يأبى أن ينيل الشعب حقه في الثقافة والثروة ؟

وأين الحرية في هذه الهيئة الاجتماعية التي تقوم على مؤسسات وأسياد يسعدون بالحرية ، وعبيد يتوقون الى السعادة والحرية ؟

ثم ، ما دامت الحرية هي السعادة وتلبية الحاجات ، وليست شيئا اخر ، فهي اذن ، اما ان تكون مطلقة الحدود واما ألا تكون . يقول ماركس : « يبدأ عهد الحرية حيث ينتهي العمل الذي تحدده الحاجة والنوازع الخارجية . انه خارج نطاق الانتاج المادي حسب مقتضيات الامور ذاتها . وعلى الانسان المتمدن والمتوحش أن يناضل ضد الطبيعة لتأمين حاجاته . عليه أن يفعل ذلك في جميع اشكال المجتمع ، وفي جميع طرق الانتاج الممكنة . وعندما يتطور ، تتسع سيطرة الضرورة الطبيعية هذه ، كما تتسع الحاجات معا . غير ان القوى الانتاجية التي تؤمن هذه الحاجات تتسع بشكل مماثل ايضا . فالحرية في هذا الميدان لا يستطاع تلخيصها الا بما يلي : ان انسان المجتمع ، أي المنتجين المتعاونين ، ينظمون هذا التبادل المادي مع الطبيعة تنظيما عقلانيا ، ويخضعونه لرقابتهم الجماعية ، عوضا عن أن يخضعوا له خضوعهم لسيطرة عمياء ... ولا يبدأ تطور قوى الانسان الا اعتبارا من هذا المجال . وهذا التطور هو غايته الخاصة ، هو عهد الحرية الحقيقي . الا انه لا يستطيع الازدهار الا باعتماده على عهد الضرورة هذا ... والشرط الاساسي لذلك هو انقاص يوم العمل » (١) .

ان تاريخ الحرية ، اذن ، ليختلط منذ البدء مع تاريخ الاضطهاد الطبقي . وهو تاريخ مرتبط بتاريخ نضال الانسان ضد الطبيعة . فكل انتصار يحرزه يتيح له تحسين أدواته ، ولغته ، وتنظيمه الاجتماعي . وهو ايضا يخلق له وعيا يجد تعبيره في العلوم والفنون والسياسة ، ويمنحه بالتالي الوسائل الكفيلة بكسب الحرية والحق .

ولقد اعتمد رئيف خوري هذه النظرية في مفهومه للحرية ، ضمن نطاقها السياسي والاجتماعي والثقافي العام . فثبتها على قاعدة اجتماعية في المجتمع المعين ، قائلا بأن « الحرية بالمطلق لا وجود لها في مجتمع طبقات ، وعالم استعمار » ، ثم عطف قائلا : « الحرية في هذا الحيز محدودة الكمية ، قوامها بالمضاف الذي تضاف اليه ، وبلام الغاية التي ترتبط بها . فهي ليست حرية كذا ، بالمطلق ، بل انما هي حرية هذه الطبقة او هذه الامة لتفعل هذا او ذاك من اشياء . هي حرية الذئب ليفترس النعجة ، او هي حرية النعجة لتحطم اسنان

(١) رأس المال ـ الجزء الثالث ـ ص ٢ ، الطبعة الفرنسية .

صدر حديثا

للشاعر عبد الوهاب البياتي

طبعة جديدة لواحد من أهم
دواوين الشعر العربي الحديث

منشورات دار الاداب ٢٠٠ ق.ل

الذئب . وبين الحريتين يجب الاختيار . بين الحريتين لا منطقة حياد » .

فعهد الحرية الحقيقي الذي اشار اليه ماركس ، وجعله مرتهنا بانقاص يوم العمل ، اي بمفهوم متصل بحق الملكية العام بوصفها عملا وقيمة ، وثقافة وابداعا ، هو ما اوضحه رئيف خوري في قوله بأن الحرية في النظام الطبقي هي محدودة الكمية . ولكي يصبح بالمقدور التمتع بها ، ينبغي أن يأخذ الصراع مجراه الطبيعي ، يقينا بأن الغلبة لن تكون الا للسواد من الناس وهم الطاقة المحركة للتاريخ ، للشعب الذي أحبه رئيف خوري اعظم الحب ، وآمن بقدرته على الخلق والعطاء .

وكما ان انقاص يوم العمل لا يتم بدون صراع طويل ، عديد الحلقات ، يفضي الى تبديل مفاهيم الملكية ، وتبديل طبيعة شروطها ، كذلك كمية الحرية لا تستقيم بالنسبة للشعب الا عبر مراحل عديدة من النضال الثوري . ففي المجتمع القائم على سلطان المال ، في المجتمع الذي تعاني فيه الجموع من الوان البؤس والحرمان ، لا تمكن من التنعم بالحياة سوى حفنة ضئيلة من اصحاب الامتيازات الطفيليين ، وضمن نطاق من حرية جد واسعة .

ولكن ، لكي لا تظل هذه الحرية فيضا سائبا بين الممتازين ، و « ضمن حيز محدود الكمية » بالنسبة للجماهير ، ينبغي لها بالضرورة ان تقترن بنشاط عملي يزداد تعاظما كلما ازداد الانسان معرفة بالقوانين الطبيعية التي تحيط به ، وازداد رغبة في استخدامها لمصلحته ، وهذا ما يجعله في المجتمع الطبقي ، عبدا في علاقاته الاجتماعية الخاصة ، يسعى سعيا ثوريا للتخلص من ربقة سيد مالك ، يسعى بالمقابل للحفاظ على امتيازاته وسلطانه . اذن ، ثمة حرية تسعى لتتحول من امتياز طبقي الى ميزة مجتمع ، وحرية تسعى لتظل امتياز ممتازين . و « بين الحريتين لا منطقة حياد » كما يقول رئيف خوري ، اي لا بد لجميع الناس من ان يخوضوا معركة الحياة ، شاءوا أم ابوا ، وذلك لكي يضعوا تاريخهم بارادة جماعية ، ويخططوا لمستقبلهم جوا تسيطر عليه الحرية ، وتنتشر في ارجائه ابداعات الانسان الواعية .

ولم يتخذ رئيف خوري جانب الحياد . وانما آثر المصلحة الجماعية ، المصلحة الوطنية ، مصلحة اولئك الذين يعيشون من عملهم الخاص ، لا مصلحة الذين يعيشون من استثمار عمل الاخرين ، مصلحة الطبقة الصاعدة التي هتف لها المستقبل ، في دنيانا وفي دنيا الناس الوسيعة ، وقد أمدها بنتاج فكره الانتقادي الحر ، ويقينه ان الفكر الذي يبني بكل حرية ، ليس بمقدوره آلا أن يساعد مخاض التاريخ ، ويدعم القوى النامية التي ترفض ان تصلب بعد اليوم حتى على صليب من ذهب .

وعلى هذا النحو ، عرف السياسة والاجتماع ، وعرفهما على انهما حجارة رحى ، محورها الانسان ، ومعطاها الحرية . وهذا القدر الكبير من مفهومه للحياة ، للحرية ، على مثله من تعبير في النشاط العامي ، السياسي ، والاجتماعي ، والثقافي ، والادبي ، هو الذي جعل منه اديبا مفكرا ثوريا وانسانيا حرا ، لاعلى مثال في مرحلتنا الراهنة .!

لقد كان تحرره الواعي ، وتمرده البصير ، يرعب مهازيل الايمان بالشعب ، وبالحرية ، ويرعب اولئك الذين بلغ من حرصهم عليها انهم اخذوا يعاطونها ، ويعطونها بالتقتير ، حتى اوشكت ان تصبح بالنسبة للاثنين ، اثرا بعد عين . اما عزوفه عن الازدواجيه ، وتوفيقه بين مواقفه الادبية والسياسية والاجتماعية ، وبين مواقفه الحياتية الخاصة ، فهي القاعدة الراسخة لعظمة لبنانه الذي سيبقى الرمز في شرف العلاقات البشرية ، وفي جسارة الوعي ، وعمق الادراك ، وقدرة الجهر بالحق .

***

رئيف خوري ، أخي ، الكلمة المدرسة . كم يطيب لمثلي ان يسوق القول الشر في مثله ، اشارة الى مقاييس نقد أدبي واجتماعي بناء ابتدعها ، وجمالية ثورية طعم بها أدبنا العربي . واني لمقدم في قابل قريب .

ميشال سليمان

دار الاداب تقدم

يسر « دار الاداب » ببيروت ان تعلن لقرائها أنها حصلت من عميد الادب العربي

الدكتور طه حسين

على حق نشر مجموعة قيمة من كتبه الاسلامية في مجلد واحد ضخم بعنوان

إسلاميات

وهو يضم الكتب التالية :

على هامش السيرة (باجزائه الثلاثة)
مرآة الاسلام ـ الوعد الحق
الفتنة الكبرى (بجزئيها)

صدر حديثا :

الثمن ١٨ ل.ل